حكايات من التاريخ

قنديل

"ابن يعقوب"

وحكاية أخرى

كتبها

محمد رجب

رسوم

محمد نبيل

سقم

جميع الحقوق محفوظة لشركة سفير

رقم الإيداع : ٢٢٨٧٦ / ٢٠٠٥

الترقيم الدولى : I.S.B.N. 977-361-394-1

فِى مَسْجِدِ«عَمْرِو بنِ العَاصِ». مِصْرُ المَحْرُوسَةُ. عَامِ(٧١٤) الهِجْرِىّ

انْطَلَقَ المُصَلُّونَ يَتَحَدَّثُونَ بِصَوْتٍ خَافِتٍ:

– لِمَاذَا يَصْعَدُ «ابنُ يَعْقُوبَ» المِنْبَرَ؟

– أَلَمْ يَكْفِهِ مَا فَعَلَ..؟

– وَاللَّهِ، الإِسْلَامُ بَرِىءٌ مِنْهُ..!

● ● ●

«ابْنُ يَعْقُوبَ» عَلَى المِنْبَرِ يُهَدِّدُ وَيَتَوَعَّدُ. بِيَدِهِ قِنْدِيلٌ مُشْتَعِلٌ. يُؤَرْجِحُ القِنْدِيلَ وَهُوَ ثَائِرٌ..

– يَسْرِقُونَ قَنَادِيلَ الجَامِعِ وَتَسْكُتُونَ..؟

أَنْتُم شَيَاطِينُ خُرْسٌ..!

القُلُوبُ يَعصِرُهَا حُزْنٌ وَاسْتِنْكَارٌ، أَصْوَاتٌ رَافِضَةٌ تَزْعَقُ:

– اللَّهُ المُنْتَقِمُ، أَوْقَعْتَ بَيْنَنَا وَ بَيْنَ النَّصَارَى..!

مَاذَا جَنُوا ..؟ اسْتَعَارُوا قَنَادِيلَنَا لِحَفْلِهِم..!

أَلَيْسُوا أَبْنَاءَ وَطَنِنَا..؟

● ● ●

دَخَلَ الحُرَّاسُ يَرْفَعُونَ الحِرَابَ.

يَشْرَعُونَ السُّيُوفَ.

– أَيْنَ الفَقِيهُ «عَلِىُّ بنُ يَعْقُوبَ»؟

دَبَّ الرُّعْبُ فِى قَلْبِ الخَطِيبِ الثَّائِرِ..

سَأَلَهُم بِصَوْتٍ مَهْزُوزٍ:

– مَاذَا تُرِيدُونَ مِنِّى..؟

السُّلْطَانُ يَطْلُبُكَ فِى التَّوِّ..

هَبَطَ عَنِ المِنْبَرِ.

سَارُوا بِهِ وَسْطَ صَفَّيْنِ.

انْحَشَرَ الكَلامُ فِى حُلُوقِ النَّاسِ..!

• • •

فِى قَلْعَةِ السُّلْطَانِ..

السُّلْطَانُ يَغْلِى غَضَبًا..

عَظِيمُ القِبْطِ صَعِدَ القَلْعَةَ بِالخَبَرِ.

سَأَلَهُ السُّلْطَانُ وَهُوَ لَا يُصَدِّقُ أُذُنَيْهِ:

– اقْتَحَمُوا الكَنِيسَةَ..؟

– حَدَثَ، جَنَابَ السُّلْطَانِ..!

– مَتَى..؟

– بَعْدَ صَلاةِ المَغْرِبِ اليَوْمَ.

– كَمْ عَدَدهُم..؟

– جُمْهُورٌ كَبِيرٌ بِالعَصَا وَالنَّبُّوت. نَقَلْنَا الجَرْحَى إِلَى دَارِ الشِّفَاءِ.

– هَذِهِ فَضِيحَةٌ. مَنْ حَرَّضَهُم..؟

– يَقُولُونَ الفَقِيهُ «ابنُ يَعْقُوبَ»..!

نَهَضَ السُّلْطَانُ عَنْ عَرْشِهِ:

– أَيَحْدُثُ هَذَا فِى بَلَدِ الحُبِّ وَالأَمَانَ؟ انْصَرِفْ سَالِمًا يَاعَظِيمَ القِبْطِ.

لَنْ تَمُرَّ الجَرِيمَةُ دُونَ عِقَابٍ..!

• • •

مَا قَوْلُكُم فِى «ابنِ يَعْقُوبَ»..؟

غَصَّتْ قَاعَةُ العَرْشِ بِالعُلَمَاءِ وَالفُقَهَاءِ. اسْتَدْعَاهُمُ السُّلْطَانُ فِى نِصْفِ اللَّيلِ..

الكُلُّ اسْتَنْكَرَ الحَادِثَ البَشِعَ..

–لاَبُدَّ مِنْ رَدْعِ الجَانِى..

– نَتَدَارَكُ الأَمْرَ، فَهُوَ خَطِيرٌ..

– القِبْطُ إِخْوَانُنَا.

أَوْصَانَا بِهِمُ القُرآنُ خَيرًا .

صَاحَ السُّلْطَانُ فِى حَارِسِهِ:

- أَيْنَ الفَقِيهُ، مُثِيرُ الفِتْنَةِ..؟

صَوْتٌ مِنَ الخَارِجِ:

- جِئْنَا بِهِ يَا مَوْلَانَا السُّلْطَانَ..!

تَحَوَّلَتِ الوُجُوهُ إِلَى بَابِ القَاعَةِ...

دَخَلَ «ابْنُ يَعْقُوبَ». ضَخْمٌ . وَجْهٌ تَكْسُوه حُمْرَةُ الغَضَبِ. نَظَرَ حَوْلَهُ بِاسْتِهَانَةٍ....

مَرْفُوعُ الرَّأْسِ.. دَخَلَ.. صَادَمَ نَظَرَاتِ السُّلْطَانِ الغَاضِبَةَ فِى تَحَدٍّ سَافِرٍ.

- مَاذَا صَنَعْتَ..؟

وَجَّهَ السُّلْطَانُ سُؤَالَهُ بِصَوتٍ رَاعِدٍ. لَمْ تَطْرِفْ عَيْنُ الجَانِى..

- رَأَيتُ مُنْكَرًا فَغَيَّرْتُهُ..!

- تَضْرِبُونَ النَّاسَ بِالعَصَا وَالنُّبُّوتِ؟

صَاحَ فِى العُلَمَاءِ:

- يُعْجِبُكُم هَذَا الكَلامُ؟

انْفَلَتَ الكَلامُ مِنَ الصُّدُورِ:

- هَذَا أَمْرٌ نُنْكِرُهُ..

- إِسَاءَةٌ لاَنَقْبَلُهَا..

- فَضِيحَةٌ تَمَسُّنَا جَمِيعًا..

هَاجَ «ابْنُ يَعْقُوبَ». صَاحَ فِيهِمِ مُوَبِّخًا

- عَارٌ عَلَيكُم..! تُوَافِقُونَ سُلْطَانًا جَائِرًا يُؤْثِرُ عَلَيكُمُ النَّصَارَى..؟

انْطَلَقَ.. غَضَبُ السُّلْطَانِ مِنْ مَقَالتِهِ.

-أَنَا جَائِرٌ؟ وَاللَّهِ لَوْلاَ أَنْ يُقَالَ إِنَّنِى أَبْطشُ بِالعُلَمَاءِ لَقَتَلْتُكَ..!

ضَحِكَ «ابْنُ يَعْقُوبَ»... النَّاسُ فِى ذُهُولٍ..!

- تُحَاسِبُنِى عَلَى إِقَامَتِى لِلعَدْلِ..؟

• • •

فِى سِجْنِ القَلْعَةِ..

اجْتَمَعَ الصَّدِيقَانِ.

«ابْنُ يَعْقُوبَ» شَاحِبُ الوَجْهِ. صَدِيقُهُ «ابْنُ الوَكِيلِ» الفَقِيهُ فِى كَرْبٍ عَظِيمٍ.

- رَاضٍ أَنْتَ عَمّا حَدَثَ..؟

ازْدَادَ شُحُوبُ «ابْنِ يَعْقُوبَ»

- لَوْلاَكَ وَالأَصْدِقَاءُ لَنَفَّذَ السُّلْطَانُ وَعِيدَهُ..

- تَقْصِدُ أَنْ يَقْطَعَ لِسَانَكَ..؟

فِى ذِلَّةٍ سَأَلَهُ الجَانِى:

- أَتَظُنُّ السُّلْطَانُ يَغْفِرُ لِى..؟

قَالَ صَدِيقُهُ فِى ضِيقٍ: لاَ...

- هَل جِنَايَتِى كَبِيرَةٌ..؟

بَلْ قُلْ أَفْظَعُ الجَرَائِمِ.. لِلأَسَفِ يَاصَاحِبِى أَنْتَ بَحْرُ عِلْمٍ. العِلْمُ لاَيَكْفِى وَحْدَهُ. عَلَينَا بِالصَّبْرِ وَالحِلْمِ..

ضَاقَ «ابْنُ يَعْقُوبَ» بِالمَوْقِفِ. صَاحَ:

- أَسْأَلُكَ عَنْ جِنَايَتِى لاَ عَنْ عِلْمِى..

تَنَهَّدَ الرَّجُلُ. نَظَرَ إِلَى «ابْنِ يَعْقُوبَ»:

- مَاذَا فَعَلَ النَّصَارَى لِتَضْرِبَهُم..؟ أَنْتَ يَاصَاحِبِى أَسْفَهُ العُلَمَاءِ.

- مَاذَا تَقُولُ..؟

بِالفِعْلِ أَنْتَ سَفِيهٌ. نَسِيتَ قَولَ الرَّسُولِ ﷺ: «اسْتَوْصُوا بِأَقْبَاطِ مِصرَ خَيرًا»..؟

أَلَمْ تَقْرَأْ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى فِى سُورَةِ المَائِدَةِ:

﴿ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ﴾

- صَدَقَ اللَّهُ العَظِيمُ. أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ العَظِيمَ وَأَبْرَأُ إِلَيهِ مِمَّا صَنَعْتُ..!

نَكَسَ رَأْسَهُ، وَغَلَبَهُ البُكَاءُ.

رَبَّتَ صَدِيقُهُ عَلَى ظَهْرِهِ. قَالَ:

- هَوِّنْ عَلَيكَ يَاصَاحِبِى..!

• • •

عَلَى حُدُودِ مِصْرَ المَحْرُوسَةِ..

الفَقِيهُ «ابْنُ يَعْقُوبَ» يَرْكَبُ حِمَارًا. «ابْنُ الوَكِيلِ» فِى وَدَاعِهِ..

- كَمْ سَأَشْتَاقُ إِلَى المَحْرُوسَةِ، يَاصَاحِبِى..!

تَنَهَّدَ «ابْنُ الوَكِيلِ».

- النَّفْىُ عُقُوبَةٌ مُخَفَّفَةٌ.

- هَلْ يَطُولُ المَنْفَى..؟

قَالَ «ابْنُ الوَكِيلِ».

– تَظَلُّ هُنَاكَ إِلَى أَنْ تَهْدَأَ النُّفُوسُ. المُصَالَحَةُ بَعْدَهَا وَشِيكَةٌ..

– بِمَاذَا تُوصِينِى يَاصَدِيقِى..؟

نَظَرَ صَاحِبُهُ فِى حُزْنٍ حَوَالَيهِ.. إِلَى الصَّحْرَاءِ الَّتِى تَمْتَدُّ إِلى مَاشَاءَ اللَّهُ.

– أَلا تَغْلِبَكَ نَفْسُكَ عَلَى عِلْمِكَ..!

– جَزَاكَ اللَّهُ خَيرًا. سَلامُ اللَّهِ عَلَيكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَبَرَكَاتُهُ..

– وجَزَاكَ. وَعَلَيكَ سَلاَمُ اللَّهِ ورَحْمَتُهُ وَبَرَكَاتَهُ..

تَحَرَّكَ «ابْنُ يَعْقُوبَ» مُبْتَعِدًا. بَدَا كَجَبَلٍ فَوقَ الحِمَارِ. ظَلَّ «ابْنُ الوَكِيلِ» يُلاحِقُهُ بِنَظَرَاتِهِ...

أَصْبَحَ «ابْنُ يَعْقُوبَ» بُقْعَةً صَغِيرَةً مُتَحَرِّكَةً فِى فَضَاءِ اللَّهِ الفَسِيحِ..!

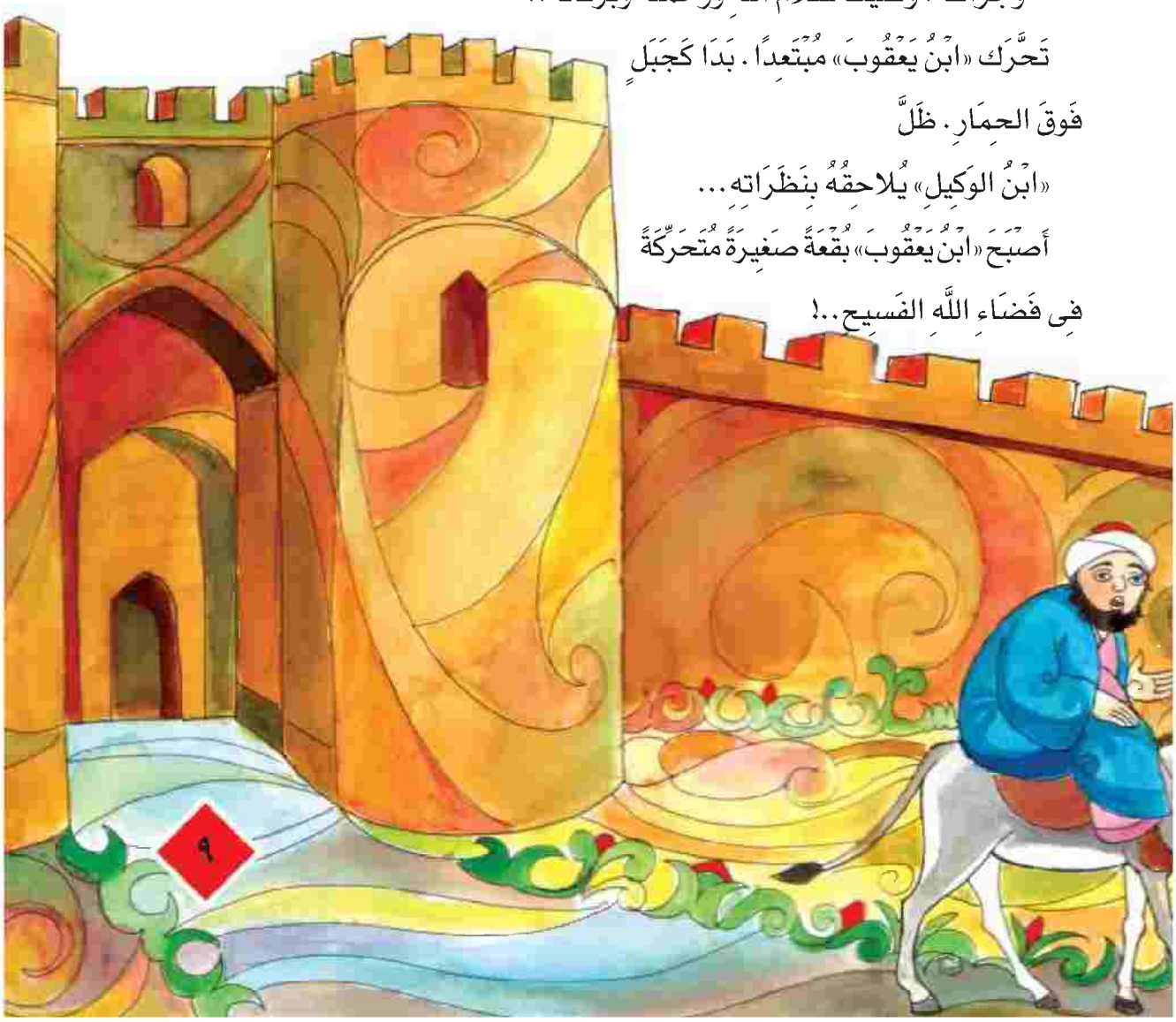

الزَّمَنُ عَامُ (٢٢) الهِجْرِيُّ. المَكَانُ: الفُسْطَاطُ بِمِصْرَ المَحْرُوسَةِ.

جَلَسَ الأَصْدِقَاءُ الأَرْبَعَةُ.. فِى اللَّيلِ جَلَسُوا فِى دَارِ «عَبْدِ الرَّحْمَنِ» يَتَشَاوَرُونَ.

قَالَ «إِبْرَاهِيمُ»:

– القِصَاصُ وَاجِبٌ، يَاعَبْدَ الرَّحْمَنِ..!

قَالَ «حَنَّا»:

– لاَ. الوَالِى عَادِلٌ. إِنْ عَلِمَ عَاقَبَ الوَلَدَ..

قَالَ «يُوسُفُ»:

– أَنَا مِنْ رَأْىِ صَدِيقِى «حَنَّا».

وانْطَلَقَ صَوْتُ «عَبْدِ الرَّحْمَنِ» عَاصِفًا:

– ظُلِمْتُ. ضُرِبْتُ. ابْنُهُ سَبَّنِى. بِالسَّوْطِ ضَرَبَنِى..!

مَنْ يُعِيدُ لِى كَرَامَتِى..؟

عَادَ «إِبْرَاهِيمُ» يَقُولُ:

– «عَبْدُ الرَّحْمَنِ» عَلَى حَقٍّ.

انْفَلَتَ عِيَارُ «يُوسُفَ». قَالَ:

الوَالِى يَرْعَى كَرَامَتَنَا . خَفَّفَ الأمِيرُ عَنَّا الجِزْيَةَ . خَفَّضَ لَكُمُ الخَرَاجَ حَتَّى أَغْضَبَ «عُمَرَ»..!

قَالَ «حَنَّا»:لاَتَنْسَ يَاإِبْرَاهِيمُ أَنَّهُ لاَيُفَرِّقُ بَينِى أَنَا القِبْطِىّ وَبَيْنَكَ..!

عَادَ«يُوسُفُ» يَقُولُ:الرَّجُلُ حَنُونٌ. أَنْتَ لَمْ تُجَرِّبِ الرُّومَ. سَامُونَا العَذَابَ.

أَرْهَقُونا بِالضَّرَائِبِ.

قَالَ«حَنَّا»: وَنحْنُ أَصْدِقَاءُ مُنْذُ الصِّغَرِ. أَنَا عَطَّارٌ ابنُ عَطَّارٍ.

وَالِدِى وَوَالِدُ«عَبْدِ الرَّحْمَنِ» جَارانِ وَصَدِيقَانِ.

ضَحِكَ «يُوسُفُ» وقَالَ:

– وَكَذَلِكَ حَالِى وَحَالُ «إِبْرَاهِيمَ». نَحْنُ جَارَانِ، أَنَا صَائِغٌ وَهُوَ بَقَّالٌ. جَارَانِ. صَدِيقَانِ. حَبِيبَانِ:

طَالَ السَّمَرُ إِلَى الفَجْرِ. انْبَعَثَ نِدَاءُ الحَقِّ مِنْ مَسْجِدِ عَمْرو. نَهَضَ «إِبْرَاهِيمُ». قَالَ:

–أَنَا ذَاهِبٌ إِلَى المَسْجِدِ.

قَالَ «عَبْدُ الرَّحْمَنِ»:

– خُذْنِى مَعَكَ لِنُصَلِّىَ الصُّبْحَ.

نَهَضَ القِبْطِيَّانِ. قَالَ «حَنَّا»: وَأَنَا إِلَى الحَانُوتِ. اليَومَ السُّوقُ.

وَانْطَلَقَ «يُوسُفُ» يَقُولُ:

– أَمَّا أَنَا فَإِلَى فِرَاشِى. يُغَالِبُنِى النُّعَاسُ..!

• • •

لَمْ يَزَلْ «عَبْدُ الرَّحْمَنِ» غَاضِبًا. لَمْ تَبْرَحْ ذَاكِرَتَهُ حَادِثَةُ السِّبَاقِ.

المَكَانُ سُوقُ الفُسْطَاطِ.

رَجُلٌ فَوْقَ مِنَصَّةٍ. الوَقْتُ نَهَارٌ. بِيَدِ الرَّجُلِ نَاقُوسٌ.

يُنَادِى الرَّجُلُ:

– يَاأَهْلَ المَحْرُوسَةِ أَنْصِتُوا..! أَمِيرُكُم يُرِيدُ بِكُمُ الخَيرَ. اليَومُ يَومُ الجَائِزَةِ. سِبَاقُ الخَيلِ. الجَائِزَةُ مُكَافَأَةٌ مِن الأَمِيرِ. هَلُمُّوا إِلَى السِّبَاقِ أَمَامَ المِنَصَّةِ خَمْسَةٌ عَلَى صَهَوَاتِ الجِيَادِ. التَّرَقُّبُ فِى العُيُونِ. الأَيْدِى قَابِضَةٌ عَلَى الأَعِنَّةِ. التَّحَفُّزُ أَمَالُ الأَبْدَانَ عَلَى مُقَدِّمَةِ الجِيَادِ.

وَاصَلَ رَجُلُ المِنَصَّةِ الحَدِيثَ.

حِينَ يَسْمَعُ الفِرْسَانُ صَلِيلَ النَّاقُوسِ يَنْطَلِقُونَ..!

ثَلَاثَةٌ قَعَدُوا عَنْ إِتْمَامِ السِّبَاقِ. «عَبْدُ الرَّحْمَنِ» أَطْلَقَ لِجَوَادِهِ العَنَانَ. انْطَلَقَ الجَوَادُ

كَالسَّهْمِ سَبَقَ جَوَادَ ابنِ الأَمِيرِ!

أَعْلَنَ رَجُلُ المِنَصَّةِ: الفَائِزُ «عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَيْسَرَةَ»..!

وإِذَا بِمُحَمَّدٍ يَصِيحُ: كَذَبْتَ. أَنَا مَنْ فَازَ لاَسِوَايَ..!

حَبَسَتِ الجَمَاهِيرُ الأَنْفَاسَ. الخَبَرُ وَقَعَ عَلَى سَمْعِهِم كَالصَّاعِقَةِ.

صَاحَ «عَبْدُ الرَّحْمَنِ» فِي سَخَطٍ: بَلْ جَوَادِي هُوَ الرَّابِحُ.. ضَرَبَهُ وَجَوَادَهُ بِلاَرَحْمَةٍ:

خُذْ مِنِ ابْنِ الأَكْرَمِينَ..!

انْطَلَقَ «مُحَمَّدٌ» بِجَوَادِهِ. ..

مِنَ الأَفْوَاهِ انْدَلَعَتْ أَصْوَاتُ اسْتِنْكَارٍ: مَاهذَا..؟ يالَلْبَشَاعَةِ ..!

- كَيْفَ يُغْتَصَبُ الحَقُّ بِهَذَا الشَّكْلِ..؟

- هَلْ يَرْضَى هَذَا الظُّلْمَ الأَمِيرُ..؟

• • •

أَنْهَى «عَمْرٌو» القِرَاءَةَ. الْتَفَتَ إِلَى ابْنِهِ يَسْأَلُهُ:

- مَابَالُ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ يُوصِينِي بِأَنْ أَصْحَبَكَ إِلَيهِ فِي «المَدِينَةِ»؟

شَحِبَ وَجْهُ الفَتَى. أَجَابَ بِصَوْتٍ مَبْحُوحٍ: لاَأَدْرِي..

- هَل جَنَيْتَ جِنَايَةً..؟

- لاَ.

حَوَّلَ «عَمْرٌو» دَفَّةَ الحَدِيثِ إِلَى مَبْعُوثِ «عُمَرَ»:

- السَّفَرُ طَوِيلٌ. اسْتَرِحْ وَاطْعَمْ ثُمَّ نَذْهَبُ.

مَا تَزَحْزَحَ الرَّجُلُ. مَا طَرِبَ لاطَّعَامِ. مَا فَرِحَ لِلرَّاحَةِ.

قَالَ: الخَلِيفَةُ يُلِحُّ. اصْحَبَانِى فِى التَّوِّ..!

• • •

المَكَانُ: «المَدِينَةُ». بَيْنَ يَدَى أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ..

«عَمْرٌو» و«مُحَمَّدٌ» واقِفَانِ. المِصْرِىُّ جالِسٌ صَاحَ «عُمَرُ»:

- أَيْنَ المِصْرِىُّ؟

انتَفَضَ « عَبْدُ الرَّحْمَنِ». نَهَضَ. قَالَ:

- هَا أَنَا ذَا، يا أَمِيرَ المؤمِنِينَ

عَادَ «عُمَرُ» يَقُولُ:

جِئْتَنِى تَطْلُبُ العَدْلَ. رَسُولِى إِلَى

«مِصْرَ» تَقَصَّى الخَبَرَ.

خُذِ الدِّرَّةَ وَاضْرِبِ ابنَ

الأَكْرَمِينَ..!

نَاوِلْهُ الدِّرَّةَ. «عَمْرٌو»

لايُصَدِّقُ مَا يَرَى. انْهَالَ المِصْرِىُّ بالدِّرَّةِ عَلَى

وَلَدِه «مُحَمَّدٍ». كَلَّتْ يَدُهُ. انْطَلَقَ يُسَلِّمُ الدِّرَةَ إِلَى صَاحِبِهَا . قَالَ الخَلِيفَةُ: يَاعَمْرُو..!

صَاحَ وَالِى «مِصْرَ»: لَبَّيْكَ، أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ..

– اكْشِفْ عَنْ صَلْعَتِكَ لِيَضْرِبَهَا المِصْرِيُّ بالدِّرَّةِ..!

وَيْلَتَاهُ. شَعَرَ«عَمْرٌو» بالرُّعْبِ. أَيَضْرِبُهُ أَحَدُ رَعَايَاهُ

أَمَامَ الخَلِيفَةِ..؟

قَالَ «عَبْدُ الرَّحْمَنِ»:

–كَفَانِى أَنَّنِى ضَرَبْتُ مَنْ ضَرَبَنِى..!

رَشَقَتْهُ الخَلِيفَةُ بِنَظْرَةِ إِكْبَارٍ. قَالَ:

– وَاللَّهِ، مَاضَرَبَكَ ابْنُهُ إلا بِفَضْلِ سُلْطَانِهِ!

وَأَطْلَقَ قَذِيفَتَهُ الخَالِدَةَ إِلَى «ابنِ العَاصِ»:

– يَاعَمْرُو، مَتَّى اسْتَعْبَدْتُم النَّاسَ وَقَدْ وَلَدَتْهُم أُمَّهَاتُهُم أَحْرَارًا..؟

• • •

فِى دَارِ«عَبْدِ الرَّحْمَنِ»....

لَمَعَتْ عَيْنَا «إِبْرَاهِيمَ» وقَالَ :

– بُورِكَ الخَلِيفَةُ العَادِلُ..!

قَالَ«يُوسُفُ»: الأَمِيرُ لَمْ يَعْلَمْ بِمَا وَقَعَ. إِنْ عَلِمَ مَاتَرَدَّدَ فِى عِقَابِ الوَلَدِ..

ضَحِكَ «عَبْدُ الرَّحْمَنِ» رَشَقَتْهُ الأَعْيُنُ تَسْتَطْلِعُ قَالَ: نسيتُ أَنْ أَذْكُرَ لَكُمْ مَا أَوْصَانِى بِهِ «عُمَرُ»..!

زَادَتْ نَظَرَاتُهُم إلحَافًا عَلَيهِ أَنْ يَقُولُ.

عَادَ يَضْحَكُ وَهُوَ يَهْتِف:

– أَوْصَانِى إِنْ رَابَنِى شَىْءٌ أَنْ أَكْتُبَ إِلَيهِ. امْتَدَحَنِى بِأَنَّنِى مَظْلُومٌ يَطْلُبُ الإِنْصَافَ..

صَاحَ «يُوسُفُ»: أَيْنَ هَذَا مِنِ اسْتِبْدَادِ الرُّومِ المَلاعِينِ؟!